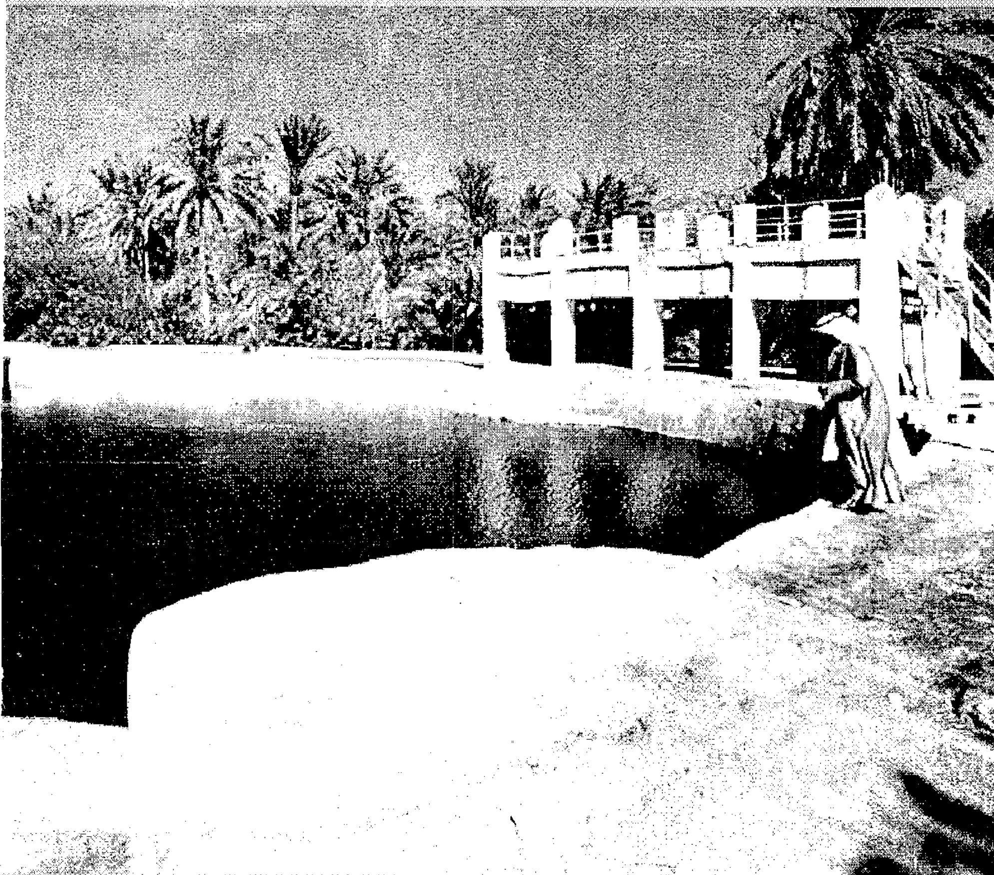
التاريخ البيئي للعيون



الطبيعة في البحرين

إعداد :

هند عبد العزيز القصيبي[1] ، د. أسماء علي أباحسين، د. وليد خليل الزباري

غالباً ما يبدأ التاريخ بأسطورة أو بعدة أساطير، والأسطورة هي المرجع الأول لتاريخ الإنسان قبل أن يسطر تاريخه برموز مقروءة سماها الكتابة، فالأسطورة* هي التي حفظت لنا آثاراً نهتدي ببعضها إلى أبعاد التاريخ غير المدون . وتأريخ البحرين أو دلمون◆[2] قديما يبدأ بأسطورة ملحمة جلجامش السومرية التي كتبت قبل أكثر من أربعة آلاف سنة والتي تظهر الموقع الذي تحتله دلمون في ديانة بلاد وادي الرافدين[3] . ويحتوي نص الأسطورة على ٢٧٨ سطراً من الخط المسماري، نقشت في ستة أعمدة على لوح طيني كبير أحضره المنقبون من بلاد وادي الرافدين إلى متحف جامعة بنسلفانيا ليستقر هناك. وقد ترجمها البروفيسور كريمر عام ١٩٤٥م[4] .



* رغم أن الأساطير في اللغة أباطيل لا دليل لها .

◆ دلون أو تلمون يعتقد البعض أنها تعني البحرين ماء عذب صالح للشرب في وسط البحر بلغة أهل دلمون القدامى .

ويحمل النص شعراً أسطورياً بعنوان "إنكي وننهورساغ" وإنكي هو إله المياه العذبة التحت الأرضية وحارسها وحاميها وهو واحد من المعبودات الرئيسية في مجمع الآلهة السومرية، أما ننهورساغ (أو ننخورزاك) فهي الأم الأرض العظيمة أو إلهة الأرض. إذ اعتقد السومريون أن الأرض والبحر يستقران على بحر آخر من الماء العذب يدعى الأبسو هو أصل المياه العذبة، حيث تستمد الأنهار مصادرها من هذا البحر التحتي، وتشكل الآبار والعيون حفراً صناعية أو طبيعية تصل إليه.

وتأخذ الأحداث المذكورة في أسطورة إنكي وننهورساغ والتي تدعى بأسطورة الجنة مجراها في دلمون[٥]، وتبدأ المقطوعة الشعرية بمديح لهذه الأرض:

"أيتها المدن المقدسة - قدموهم إليه إنكي

فإن أرض دلمون، لمقدسة

ياسومر المقدس، قدمه إليه

فإن أرض دلمون، لمقدسة

إن أرض دلمون، لمقدسة، إن أرض دلمون لطاهرة

إن أرض دلمون، لنقية، إن أرض دلمون لمقدسة"

وتستمر الأسطورة بأن تطلب (الإلهة ننهورساغ) من أبيها (الإله إنكي) أن يمد دلمون بالماء العذب، ويجيب الأب إنكي ابنته:

"ليقم أوتو (إله الشمس) المستقر في السماء

ليحضر المياه الحلوة من الأرض، من مصادر المياه في الأرض

دعيه يحضر المياه في خزانات كبيرة

دعيه يجعل مدينتك تشرب المياه منها في وفرة

ولتكن آبار المياه المرة آباراً للماء العذب

فلتنتج أطيانك وحقولك المتجددة قمحها

ولتتحول مدينتك إلى مرفأ للأرض المسكونة"

هذه هي أرض دلمون التي أحضرت لها الآلهة المياه بخزانات كبيرة وفجرتها على شكل عيون وينابيع من باطن الأرض في البر والبحر، كما حولت هذه الجزر إلى مرفأ أو ميناء لأرض مسكونة أو مأهولة بالسكان، وحولت المياه أرضها إلى جنة خضراء.

تعكس أحداث هذه الأسطورة قدسية مياه وأرض دلمون لدى حضارة السومريين ومن ثم البابليين والأكاديين فالأشوريين في بلد اتسمت أراضيه بالخصب ووفرة المياه فهي بلاد ما بين النهرين ، فدلمون حسب اعتقاد سكان بلاد وادي الرافدين هي الفردوس الذي تعيش فيه الآلهة، وهي البلاد التي تشرق منها الشمس، وهي البلاد الطاهرة . يشاركهم في ذلك المصريون القدماء الذين يعتقد رايس[٦] بأنهم تمسكوا منذ القدم بفكرة أن معظم معتقداتهم والملامح التي تميزت بها ثقافاتهم نشأت في بدايتها الأولى في جزيرة نائية هي جزيرة الراحة والسلام وكانت مرتبطة عندهم بالشمس المشرقة، ويعتقد رايس بأن ذكريات الجزيرة المقدسة ربما نسبت إلى دلمون إما بصورة مباشرة، وإما نقلت إلى المصريين عن طريق طرف ثالث (السومريون على الأرجح) .

وتؤكد الدراسات التاريخية والتنقيبات الأثرية أن حضارة دلمون مستقلة في مقوماتها وخصائصها وآثارها عن الحضارات الأخرى المعاصرة لها، وهي حضارة عريقة تمتد لتشمل الإقليم الواقع على ساحل الخليج العربي بين البصرة وعمان، فهو يشمل ما نعتبره اليوم الكويت والأحساء وجزر البحرين الحالية وقطر[٧] حتى جلفار "رأس الخيمة"، إذ أن وفرة المياه في هذه المنطقة والتي تتدفق على شكل عيون وينابيع أكسبها نطاقها الأخضر، وحدائقها التي اشتهرت بها منذ الأساطير السومرية، جعلتها منطقة جذب لأعداد كبيرة من السكان توافدوا إليها وبخاصة في الفترات الجافة على شكل دفعات مستمرة للاستقرار حول مناطق المياه التي كانت بمثابة منحة من السماء لهذه المنطقة الجافة من العالم . وقد ذكر الخليفة والحمر[٨] بأن ساكني هذه المنطقة قديماً كانوا من العمالقة (أي من العرب البائدة) الذين حكموا فيما بين النهرين والخليج . وأن الجزر المقابلة للساحل الشرقي من جزيرة العرب كانت تشتهر بالسمك ووفرة اللؤلؤ، وأن أهلها كانوا يقومون بزراعة التمر وكانت لهم حواضر بها معابد أسطورية، وكانت جزيرتهم محطة للتجارة العابرة لنقل أنواع البضائع من نحاس وخشب وتوابل وغيرها فيما بين الخليج والشرق الأقصى وبالعكس .

وقد ذهب بعض الباحثين إلى أن البحرين كانت مأهولة بالسكان أيام العصور الجليدية المتأخرة في أوروبا وربما كانت متصلة في ذلك الوقت بالأرض الأم (شبه الجزيرة العربية)(٩)، وأن جو البحرين آنذاك كان يشبه جو بلاد اليونان في الوقت الحاضر، وأرضها كانت خصبة خضراء مغطاة بكساء من الغابات . أما سكانها فقوم صيادون عاشوا على صيد الأسماك، إذ عثر على أدوات صيد من حجر الصوان في مناطق مختلفة من الجزيرة، إضافة إلى عدد من رؤوس الحراب والسكاكين الصوانية، وأحجار سُنَّت وشُذِّبت لتكون بمثابة الآلات لحصد المزروعات وقطع الحشائش واجتثاثها من الأرض . وقد قدر الباحثون عمر هذه الأدوات بين عشرة آلاف واثنتي عشرة ألف سنة (أواسط العصر الحجري القديم)، وهي ترجع إلى أواخر أيام الرعي وبداية عهد الاستيطان والاستقرار والاشتغال بالزراعة .

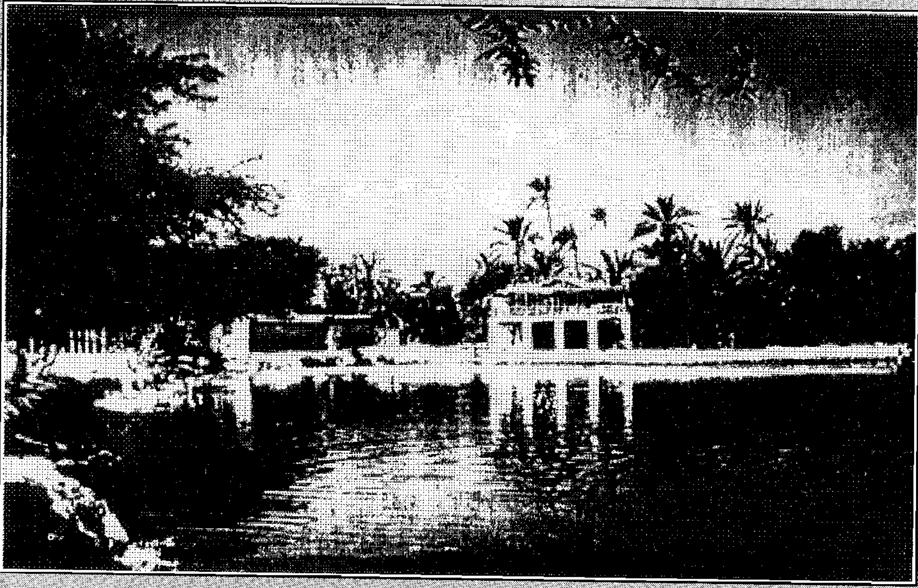
ويذكر جواد علي(١٠) أن البحرين تعد من أكثف المناطق في جزيرة العرب، فإن نسبة عدد سكانها بالقياس إلى مساحة أرضها عالية نسبياً قبل الإسلام وفي الإسلام، وسبب ذلك هو توافر الماء فيها، واعتمادها على استخراج اللؤلؤ من البحر وعلى صيد السمك الذي يقدم للأهلين المادة الأولى للمعيشة . والماء فيها غير عميق عن سطح الأرض وقد كوَّن عيوناً في بعض الأماكن، ولهذه المميزات صارت موطناً للحضر قبل الإسلام بزمن طويل .

وتعتبر حضارة العُبَيْد (٥٠٠٠سنة ق.م.) أقدم الحضارات التي تركت آثارها في البحرين(١١) ممثلة بفخارها المميز والأدوات الحجرية الصوانية كالمنجل والمخارز وغير ذلك(١٢) . وتبين تلك الشواهد أن قوم العُبَيْد استوطنوا الأجزاء الشمالية من جزيرة البحرين بجانب العيون والينابيع في الفترات الجافة، وانتشروا جنوباً في الفترات المطيرة، سيما وأن الفترة من ٥٠٠٠ إلى ٢٤٠٠ ق.م.، كانت أكثر مطراً من الوقت الحاضر(١٣) . ويشير لارسن(١٤) إلى أن حضارة العُبيد تعكس بأنهم مارسوا نشاطاً زراعياً بدائياً شمال جزيرة البحرين، إضافة إلى حرفتي الرعي والصيد في وسط الجزيرة وجنوبها مدللا على ذلك بما وجده من عينات رعوية في منطقة المرخ غرب الجزيرة والتي تدل على أن هذه المنطقة كانت تزخر بالمراعي والخراف والماعز .

لقد تركت لنا حضارة دلمون العريقة والتي ترجع إلى نحو ٣٠٠٠ سنة ق.م. آثاراً ممثلة بآلاف المقابر الشاخصة حتى يومنا هذا لتدل على الكثافة السكانية العالية في جزيرة البحرين خلال هذه الفترة في مدن خُطِّطت بطريقة هندسية جميلة[١٥] . إضافة لذلك فإن آثار اللؤلؤ (أو الأكوام الكبيرة من أصداف محار اللؤلؤ التي وجدت في جنوب جزيرة البحرين) والحلي النحاسية والفخار التي وجدت في سار وباربار تعكس التقدم الحضاري والرخاء الذي نَعِم به سكان الجزيرة خلال حضارة عرفت بحضارة باربار الأولى[١٦] . هذه الحضارة التي يعتبرها بعض الباحثين أصل الحضارة الفينيقية (٢٨٠٠ ق.م.)، حيث أن عدداً من الباحثين يرون أن البحرين كانت الموطن الذي نشأ فيه الفينيقيون، أو أنهم نزحوا إليها وسكنوا فيها ردحاً من الزمن[١٧] .

ولقد تطورت الزراعة إبان حضارة باربار الأولى إلى نظام الزراعة المروية، وانتشرت بالأجزاء الشمالية من الجزيرة زراعة النخيل وأشجار الفواكه والخضر، وشكّل التمر السلعة الرئيسية للتصدير، مما يؤكد كبر المساحة المزروعة بالنخيل . ونظراً لصغر الرقعة الزراعية المتاحة في الجزيرة فقد عمد سكانها إلى استيراد الحبوب والمواد الغذائية الأخرى من خارج الجزيرة[١٨] . وما أختام الفترة الدلمونية، المميزة عن أختام الحضارات المجاورة التي عاصرتها بشكلها الدائري، والتي ازدان البعض منها برسوم البيئة البحرينية من نخيل وغزال وسفن إلا دليل على النشاط الزراعي والرعوي والتجاري لأهالي دلمون قبل آلاف السنين .

ولقد كان للعيون الطبيعية مكانة خاصة لدى الدلمونيين فبالإضافة لكونها تفي بمتطلبات وجودهم، فقد كان لبعض العيون قدسية خاصة حيث عثر بيبي[١٩] عند حفره لمعبد باربار على فخار وتماثيل يُعتقد أنها لآلهة كانت تُعبد آنذاك . كما يوجد أكثر من معبد شيد بجوار عين أو حفر في فنائه بئر كمعبد أم السجور وباربار ودراز وغيرها، وقد استخدم الدلمونيون مياه هذه العيون في الاغتسال والتبرك ولتطهير أجسامهم لاعتقادهم بقدسية مياهها[٢٠] . ففي معبد باربار مياه مقدسة في بئر أطلق عليها اسم "**قدس الأقداس**" ويرجح بيبي[٢١] أن مياه الأبسو التي فجرتها الآلهة كانت تنبع من جرة بدون قاع



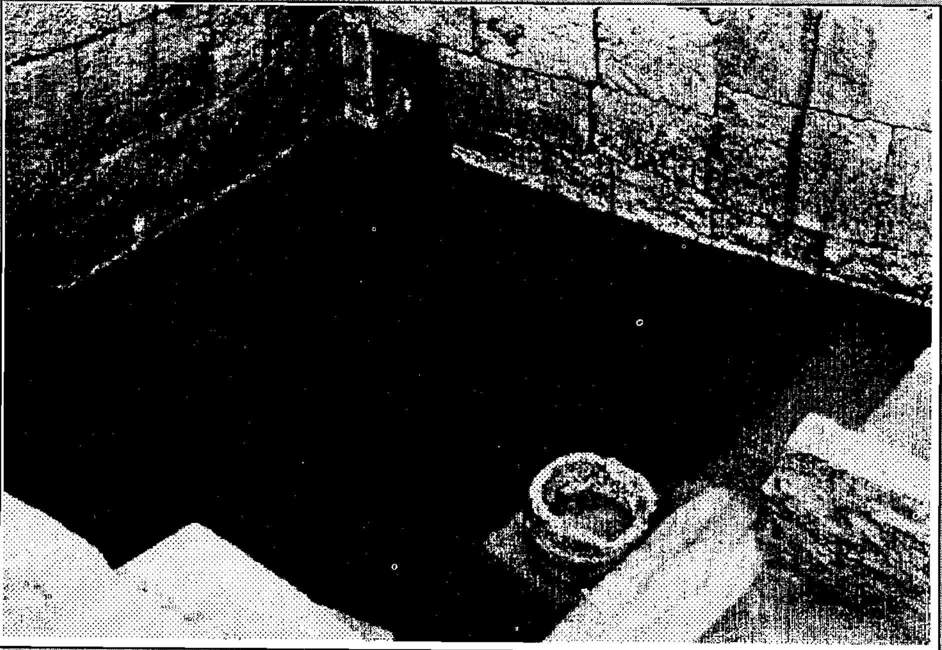
صورة عين قصارى الكبرى التي كانت تعتبر من أجمل العيون في البحرين



صورة توضح ممارسة بعض النساء لغسيل الملابس في عين قصارى



بقايا معبد أم السجور



معبد باربار – لاحظ امتلاء فناء المعبد بالماء

الوثيقـة ـ ٥٣

وجدت داخل حوض شمال معبد باربار، ويدل الاسم على مدى تقديس المياه في ذلك الزمن الذي قلّت فيه الأمطار .

ولقد انتهت حضارة باربار الأولى حسب ما جاء في لوحة مسمارية باجتياح الملك سرجون الأكادي لجزيرة البحرين في ٢٣٦٠ ق.م.، واستيلائه عليها وإجبار مملكة دلمون على الولاء له[٢٢] . ومن الجدير بالذكر أنه في حوالي ٢٤٠٠ ق.م. أخذ المناخ يميل إلى الجفاف إلا أن تأثير هذا الجفاف على الحياة تأخر نوعاً ما نظراً لارتفاع منسوب المياه الجوفية مما ساعد على استمرار الحياة سنوات بعد ذلك[٢٣] .

غير أن احتلال سرجون الأكادي لم يدم طويلاً حيث استعادت دلمون استقلالها لتزدهر في فترة باربار الثانية (٢٣٠٠ – ١٧٥٠ ق.م.) . ويذكر لارسن[٢٤] أن سكان جزيرة البحرين قد انتشروا في فترة باربار الثانية حتى الساحل الجنوبي الغربي للجزيرة، وحفروا الآبار على منحدرات منكشفات تكوين الخبر، وأقاموا نشاطاً زراعياً كثيفاً بلغت معه مساحة الأراضي المزروعة ١٥٣ كم٢ منها ٨٥ كم٢ من حقول النخيل، و٦٨ كم٢ زراعة في سهول ساحلية ورواسب غرَينية . واعتمدوا على المياه الجوفية في ري محاصيلهم الزراعية ساعدهم على ذلك ارتفاع منسوب مياه العيون وجريانها . وكانت تجارة التمور بجانب الخضر والفواكه وعلف الماشية من أهم صادرات جزر البحرين خلال تلك الفترة .

ولقد كان وجود عيون المياه العذبة البرية والبحرية في جزر البحرين من أهم أسباب سيطرة وتحكم الحضارة الدلمونية خلال فترة باربار الثانية على تجارة النحاس بين ماجان (عمان) وبلاد الرافدين . إذ احتاجت بلاد وادي الرافدين لكميات كبيرة من النحاس لصنع آلتها العسكرية فكانت السفن المحملة بهذه البضائع من ماجان والسند إلى بلاد وادي الرافدين ترسو بجزيرة البحرين للتزود بالمياه العذبة والتمور[٢٥] .

ونظراً للازدهار والرخاء الذي تمتعت به حضارة دلمون خلال فترة باربار الثانية، إضافة إلى موقعها الاستراتيجي فقد أصبحت مطمعاً لحكام بلاد وادي الرافدين، إذ سيطر الغزاة الكاشيون عليها في الفترة من ١٧٥٠ إلى

١٢٠٠ ق.م.[٢٦] . ومع انهيار الفترة الدلمونية السابقة وما تعرضت له الجزيرة من غزوات من قِبَل حكام وادي الرافدين فقد انهار النشاط الزراعي وتقلصت مساحة الأرض المزروعة إلى ٤٦ كم٢ فقط تركزت في السواحل الشمالية لتقتصر على مناطق وجود المياه فقط، وربما كان لتأثر المنطقة بالجفاف في تلك الفترة أثر على تقلص المساحة المزروعة[٢٧] . ويذكر بيبي[٢٨] أنه عثر في حفرياته على لوحة هي الوحيدة التي عثر عليها في البحرين (وترجع للفترة الكاشية) تهتم بنتاج هذه المنطقة من التمر، فتذكر أن دلمون كانت تصدر التمور وكان تمرها موضع تقدير عالٍ في بابل .

تلت هذه المرحلة مرحلة المدينة الرابعة أو ما يعرف بدلمون المتأخرة (١٢٠٠ - ٦٠٠ ق.م.) والتي عاصرت البابليين والآشوريين في العراق . هذه المرحلة تعتبر مرحلة ازدهار في تاريخ دلمون، إذ استعادت دلمون مركزها التجاري مع بلاد الرافدين، وسيطر تجار دلمون على تجارة اللؤلؤ والنحاس والبرونز، ولقد ساهمت الزيادة في هطول الأمطار خلال تلك الفترة[٢٩] في التطور والنمو السكاني والزراعي فاتسعت الرقعة الزراعية عن سابقتها ووصلت إلى ٦٥ كم٢ . وانتهت المدينة الرابعة سنة ٦٠٠ ق.م. إثر سقوط الدولة الآشورية لتنهي حضارة عريقة هي حضارة دلمون .

ونظراً لما كانت تتمتع به دلمون من رخاء وأموال وموقع استراتيجي في الخليج فإن هذه المنطقة كانت وعلى مر العصور مطمعاً للقوى الأكثر هيمنة ، فإثر ضعف وسقوط الدولة الآشورية سيطر البارثيون (الفرس) على المنطقة والخليج، وتعاهد العرب (الكلدانيون) معهم على دفع الجزية من الطيب والأموال والهدايا للقضاء على الدولة الآشورية والبابلية . غير أن أطماع الفرس في السيطرة على خيرات منطقة الخليج وموقعها الاستراتيجي المتوسط للتجارة بين الشرق الأقصى والجزيرة العربية أدت إلى تعرض البحرين إلى هجوم الساسانيين من السواحل الفارسية أثناء حكم قورش الثاني (٥٥٩ - ٥٢٩ ق.م.)، وزاد نفوذهم في الفترة (٣٧٨ - ٣٢٥ ق.م.) إبان احتلالهم للأجزاء الشرقية من جزيرة العرب[٣٠] . ويرجح لارسن[٣١] أن تقنية الري بواسطة القنوات قد تعرَّف عليها في البحرين إبان النفوذ الساساني، أو ربما في تاريخ أقدم نتيجة لاحتكاك أهالي البحرين

بحضارات ماجان (عمان) وإيران وبلاد الرافدين التي وجد بها هذا النظام منذ القدم . وقد وصف جواد علي[٣٢] قنوات البحرين فذكر : "وفي جزر البحرين قنوات يظن أنها من عمل الساسانيين، أقاموها للاستفادة من المياه المتدفقة من العيون، وهي أخاديد حفرت في الأرض ثم بطنت بمادة تمنع الماء من التسرب إلى التربة ثم سقفت بصفائح من الحجر، أهيل عليه التراب لتمنع أشعة الشمس من الوصول إلى الماء فتبخره، وبذلك تقل كمياته . وبين مسافة وأخرى تقدر ما بين عشرة وعشرين ياردة توجد منافذ لمرور الهواء منها إلى باطن القناة . وقد بُطنت هذه المنافذ بالحجارة، وقد أقيمت جدر عند مخارجها إلى الأرض لتحميها من سقوط الأتربة فيها . ولا تزال بعضها عامرة تجري فيها مياه العيون حتى الآن . وهناك آثار قنوات مشابهة لها تقع في السواحل المقابلة للبحرين من المملكة العربية السعودية تعود إلى هذا العهد أيضاً" . وقد ساعد بناء القنوات في البحرين على استغلال أمثل للمياه وثبات الرقعة الزراعية فيها .

وظل الصراع بين العرب والفرس حتى ظهرت قوة جديدة هي الحضارة الإغريقية بقيادة الإسكندر الأكبر التي بسطت نفوذها على مساحة واسعة من العالم في العقد الرابع من القرن الرابع قبل الميلاد، فقد سيطر الإغريق على سواحل الخليج العربي بأعظم أسطول بحري شهدته المنطقة، واحتلوا جزيرة "فيلكا" وأقاموا فيها معبداً سمي بمنار[٣٣] . وانتقلت الحركة التجارية الاقتصادية بين أعالي الخليج وأسفله من البحرين إلى مدينة "جرها" على الساحل الشرقي للجزيرة العربية والتي اشتهرت في التاريخ بكنوزها، كما تناقصت التجارة عبر الخليج العربي نظراً لتشجيع اليونانيين التجارة عن طريق البحر الأحمر الذي كان رغم بعده آمن وأسلم لبعده عن هيمنة الساسانيين (الفرس)، وأصبحت التجارة المارة بالخليج العربي مقصورة بالدرجة الأولى على ما تستهلكه الإمبراطورية الساسانية[٣٤] .

وسجل مؤرخو الإغريق أمثال سترابو وبليني فترة الاحتلال اليوناني في كتبهم وبينوا أن هناك جزيرة تدعى تايلوس تقع في الجنوب، قربها جزيرة أصغر تدعى أرادوس (المحرق)، كانت مهمة في طريق التجارة كونها نقطة للتزود بالماء العذب في الخليج[٣٥]، كما

أن بليني يذكر "بأن العرب كانوا يعتقدون بأن العين في البحرين تنبع مياهها الباطنية من مجاري نهر الفرات"[٣٦] . وجاءت التنقيبات الآثارية التي تمت مؤخراً (يونيو ١٩٩٧) في بعض القبور بقرية الشاخورة شمال جزيرة البحرين وما عثر فيها من عملات وحلي ومجوهرات لتؤكد على سكنى الإغريق أيضاً في جزيرة البحرين .

وانتهز الرومان فرصة ضعف حلفاء الإسكندر وانهيار مملكته العظيمة فاستولوا على ممتلكات الإغريق في الشرق، لتبدأ علاقة العرب بالرومان وليبدأ النزاع بين الرومان والفرس للسيطرة على خيرات الخليج والجزيرة العربية وطرق التجارة البرية والبحرية المارة فيهما[٣٧] . وانقسم العرب بين تابع للفرس وتابع للرومان بدون حكم مباشر من قِبَلهم، وقامت دول عربية غنية في شمال الجزيرة العربية كدولتي المناذرة والغساسنة كانت أهم دعائم قيامها سيطرتها على طرق التجارة .

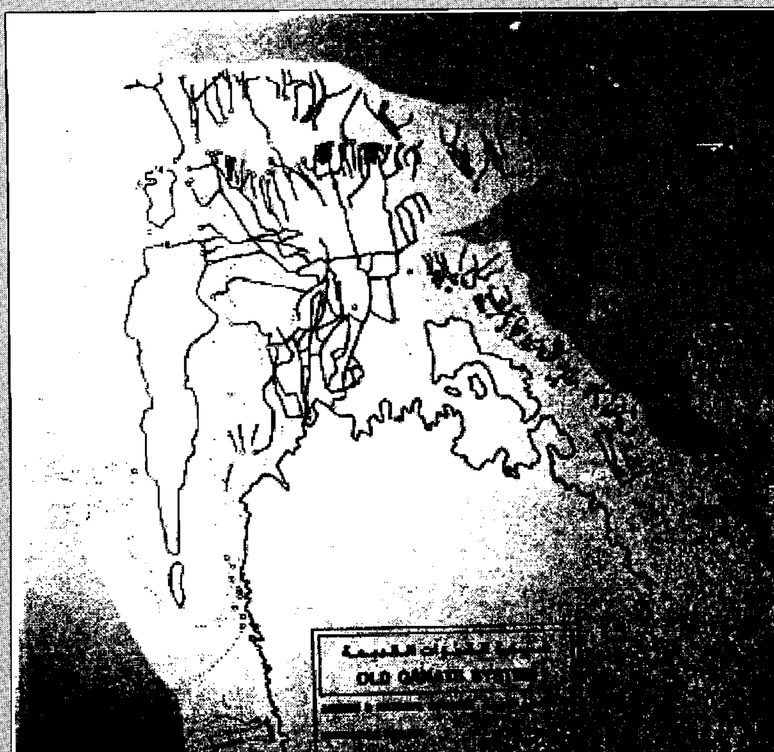
وكان يطلق على جزيرة البحرين آنذاك اسم أوال، والراجح أن "أوال" اسم وثن تعبَّد له أهل البحرين قبل الإسلام وربما يرجع أصله إلى الجزيرة العربية وانتقل إلى البحرين مع الهجرات التي تعرضت لها من قِبَل القبائل العربية التي فرضت نفوذها على المنطقة آنذاك، وإثر انتهاء علاقتها الدينية مع حضارة وادي الرافدين، أو أن أوال نسبة إلى بكر (وائل) التي ينتسب لها بكر وتغلب بن وائل الذين سكنوا إقليم البحرين قبل الإسلام[٣٨] . إذ أن أعراب جزيرة العرب حينما كان يدب الجفاف في أراضيهم وما ينتج عن ذلك من مجاعات وحروب للسيطرة على آبار المياه والمرعى لا يسعهم سوى الهجرة إلى مناطق المياه في شمال وشرق وجنوب الجزيرة العربية[٣٩] . ومن هذه المناطق البحرين (الجزء الشرقي للجزيرة العربية وجزر البحرين) . ويشير لارسن[٤٠] إلى أن تقلص النشاط الزراعي في البحرين خلال فترة الألف الأول بعد الميلاد ربما يعود إلى أن تلك الفترة قد شهدت تناقصاً في سقوط الأمطار وجفافاً لم يقتصر على البحرين فحسب وإنما امتد تأثيره إلى الجزيرة العربية مؤدياً أحياناً إلى حصول مجاعة .

تلت هذه المرحلة مرحلة العصر الإسلامي الذي بدأ بدخول الإسلام إلى البحرين عام ٦٣٠م واعتناق أهلها

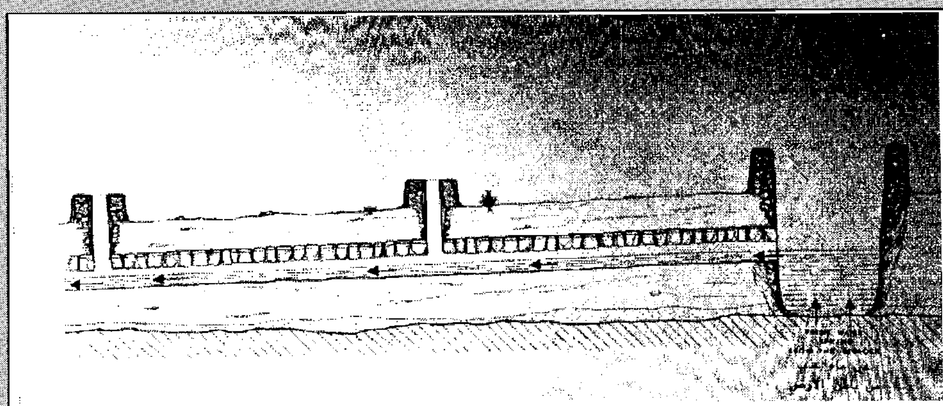
الإسلام . ورغم الحالة الاقتصادية السيئة التي عانى منها باقي عرب الجزيرة العربية في تلك الفترة، إلا أن أول وأكبر خراج دخل المدينة المنورة هو خراج أهل البحرين، حيث يذكر البلاذري[٤١] أن المبلغ الذي أرسل إلى النبي ﷺ بلغ ٨٠,٠٠٠ دينار مما يدل على استقرار البحرين وغناها .

ويصف ياقوت الحموي أوال في كتابه معجم البلدان فيذكر أن الاسم القديم لأوال هو (ترم) وهي تقع على مسيرة يوم من الساحل الشرقي لجزيرة العرب، وأنها كانت مأهولة بالسكان عند ظهور الإسلام، وأرضها خصبة ومياهها وفيرة وتعتمد على المياه الجوفية، وفي صدر الإسلام كان في الجزيرة مدينة كبيرة حسنة ولها جامع يقصد (المنامة) وفيها بعض القرى في الشمال الشرقي ويقصد (الجفير)، وقرية سترة وهي جزيرة تقع شرق أوال غنية بالآبار والعيون وفيها كثير من أشجار النخيل[٤٢] . ولعل ما وجد في قلعة البحرين، التي يرجح الآثاريون[٤٣] أنها تعود إلى العصر الإسلامي وربما أقدم (اليوناني)، من قنوات محفورة في أرضية إحدى غرفها لاستخراج الدبس (عسل التمر) بالأسلوب التقليدي لهو دليل على وفرة التمور في هذه الجزيرة .

ومن الروايات الشعبية المتداولة الخاصة بعيون البحرين التي تعكس أهمية عيون المياه لدى سكان البحرين روايتان ذكرتا في كتب التاريخ الأولى تخص عين أم السجور التي كانت أعظم بئر في البحرين والتي كانت تسقي القسم الشمالي من الجزيرة، فتذكر الرواية أن الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان أرسل جيشاً إلى البحرين لحرب الخوارج وإعادة سيطرة الدولة الأموية على البحرين وقام قائد الجيش بردم عين أم السجور عقاباً لسكانها[٤٤] . إلا أن الدلائل الأثرية التي وجدتها البعثة الدنمركية تبين أن تدميراً لحق بالعين وأن ردم أم السجور ربما حدث في عصور أكثر إيغالاً في القدم أو ربما وقع التدمير أكثر من مرة، وتقص علينا الرواية الثانية بأنه في غابر الزمان كان زعيم يدعى ابن حكيم يقطن القطيف جاء إلى البحرين وهو يرغب في الزواج من ابنة جميلة لرئيسها ويبدو أنه لا الحسب ولا المال كان مرغوباً فيهما، إذ قوبل طلبه بالرفض والازدراء، فما كان منه إلا أن أشعل نار الحرب وقطع عن أهل البحرين الماء بقصد إكراههم وقهرهم



شبكة قنوات الري القديمة في البحرين (متحف البحرين الوطني)



شكل تخطيطي لقناة رى (متحف البحرين الوطني)

الوثيقـة ٥٩.

عطشاً فتسبب في ردم ثلاثة آبار، واحدة في عالي والثانية في بَلاد القديم والثالثة في دراز، ولكن ذلك الغازي رُدَّ على أعقابه بعد حين واضطر للتراجع بعد هزيمته(٤٥) .

ومن الجدير بالذكر أن البحرين (أوال والأحساء والقطيف) مرت خلال عصور الخلافة الإسلامية بفترة من الاضطرابات للمرتدين وبعض الحركات الانفصالية عن الخلافة الإسلامية مثل الخوارج والزنج وحركة القرامطة وغيرها مما أدى إلى عدم استقرار المنطقة وبالتالي تقلص النشاط الزراعي . فمثلاً نجد أن ما سُنَّ من قوانين إبان حركة القرامطة يستهدف جباية الضرائب التي كانت تدخل ميزانية الدولة وتصرف على الخدمات العامة والأسلحة وتجهيز الجيوش قد ساعد على تدهور الوضع في المنطقة . حيث فرضت ضرائب على المراكب التي تمخر الخليج، وعلى الغوص (أي صيد اللؤلؤ)، وأعشار تؤخذ على الأراضي، ورسوم على التجارة وغنائم الحروب والمزارع الخاصة بالدولة . ولعل بعد المنطقة عن مراكز الخلافة الإسلامية ووفرة مياهها وثرواتها الزراعية والتجارية واكتفائها الذاتي نسبياً جعل منها مناطق استقطاب لتلك الحركات الانفصالية .

وفي القرن الثاني عشر طرأت على البحرين تغيرات وتحولات سياسية واتجاهات مغايرة إثر سيطرة الفرس، كما شهدت هذه الفترة انحساراً لمستوى المياه الجوفية والينابيع، وقلة الأمطار ونتيجة لذلك فقد تم مد القنوات إلى الساحل الجنوبي الغربي للجزيرة(٤٦) .

لقد تأثرت جزيرة أوال بالمد العربي في القرن الثالث عشر، وأصبح لها علاقات مع المراكز التجارية الأخرى في الخليج كجزيرة (هرمز) وجزيرة (قيس) اللتين كانتا تشكلان موازين القوى في الخليج في ذلك العهد، وقد أُطلق في هذه الفترة على مجموعة جزر أرخبيل البحرين الحالية اسم البحرين(٤٧) .

وفي بداية القرن السادس عشر سيطر البرتغاليون على طرق التجارة وأقاموا لهم مراكز في الخليج أهمها جزيرة هرمز وجزيرة البحرين . ويعزو الخليفة وأباحسين(٤٨) أسباب غزو البرتغاليين للبحرين إلى الأهمية العسكرية والاستراتيجية لموقعها وما تذكره المصادر البرتغالية من وصف

لخيراتها، وهذا ما يبرر استمرار الوجود البرتغالي فيها ما يقارب المائة عام حيث تذكر تلك المصادر "أن البحرين تضم جزيرة كبيرة غنية بالمياه العذبة والخضراوات والأشجار الباسقة وغنية بالجواهر ومغاصات اللؤلؤ ومصايد الأسماك، وأن سكانها وهم من القبائل العربية كانوا يبيعون اللؤلؤ للتجار الذين ينقلونه بدورهم إلى بلاد الهند وفارس والبلاد العربية الأخرى فيدر على البحرين أرباحاً طائلة" .

أما ما كتبه القائد الأديب الشاعر العثماني علي شلبي، الذي أُوكلت له مهمة مهاجمة البرتغاليين في الخليج عام ١٥٥٣م، في وصف جزيرة البحرين فهو "وفي البحرين وجدنا ويالها من حكمة عجيبة - الغواصين وكل واحد منهم يمسك بيده زقاً يغوص في البحر حوالي ثمانية أبواع (الباع حوالي المتر ونصف المتر) أو أكثر ثم يملؤ ما بيده من زق بماء عذب من القاع . وفي أيام الصيف يكون هذا الماء أكثر برودة من المياه الأخرى وأكثر عذوبة أيضاً . ويسترسل علي شلبي فيذكر بأن هذا الماء جيد جداً وأن الآية الكريمة "مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان) إنما تتحدث عن هذا وهم يعتقدون أن هذا الماء هو سبب إطلاق هذا الاسم على البلد"(٤٩) .

ولقد أتاح خروج البرتغاليين من الخليج العربي الفرصة أمام بعض التجمعات القبلية للهجرة من مواطنها في شبه الجزيرة العربية متجهة نحو الساحل الغربي للخليج العربي إثر تعرضها لقسوة البيئة وطلباً للخيرات من لؤلؤ وأسماك وما تجلبه السفن من تجارة تأتيها من البلاد القاصية والدانية . ومن هذه القبائل العربية عرب العتوب الذين ينتمون إلى قبيلة عنزة التي تعرضت في أواخر القرن السابع عشر (١٦٦٥ - ١٦٦٧م) إلى قحط شديد سمي (صلهام) هلك فيه عدد كبير من الناس، ونشبت فيه الحروب بين القبائل للتنازع على البقاء لقلة الخيرات ويقول في ذلك أحد أدباء سدير :

غدا الناس أثلاثاً فثلث شريدة

يلاوي صليب البين عار وجائع

وثلث إلى بطن الثرى دفن ميت

وثلث إلى الأرياف جال وناجع

هذه الأسباب وغيرها دفعت بعض القبائل إلى الهجرة صوب مناطق غنية بالخيرات كالعراق والأحساء ومناطق

الخليج العربي[٥٠] . وقد اجتذبت موارد البحرين الطبيعية وموقعها الاستراتيجي الآمن ومناخها الأقل قسوة مما يجاورها من مناطق أنظار أية جماعة رغبت في تحسين مستواها المعيشي . ويصف لاندن[٥١] اقتصاد البحرين عام ١٧٨٠م بأنه يعتمد أساساً على البيئة فتواجد الماء العذب المستمر ساعد على زراعة النخيل والخضراوات عبر آلاف السنين، كما أن صيد السمك واللؤلؤ كان يشكل عنصراً أساسياً لاقتصادها التقليدي . وعليه فإن التمر وصيد السمك كانا مصدرين لدفع الخراج على مر العصور لمن يحكم الجزر . أما التجارة والصناعة البحرية فإنها مبنية على تبادل المنتجات المحلية (خاصة اللآلئ) كما أن نقل البضائع الواردة من والصادرة إلى موانئ شرق الجزيرة العربية كان أيضاً مصدراً هاماً في نظام الاقتصاد المحلي التقليدي .

وقد كان لدخول آل خليفة البحرين وتوطيد دعائم حكمهم فيها (١٧٨٣م) أكبر الأثر في خلق نظام مستقر في البحرين يحميها من الأطماع الخارجية والاضطرابات الداخلية الناجمة عن التنافس في الحكم، مما ساعد على خلق نظام اجتماعي اقتصادي خاص بدولة البحرين، حقق ازدهاراً تجارياً رغم الأطماع التي ما انفكت تحاول السيطرة على خيرات الجزيرة من حين لآخر إلى أن وقعت البحرين الاتفاقية الأنجلو بحرينية الأولى (١٨٦١م) مزيلة بذلك خطر أي غزو خارجي يهدد البحرين[٥٢] ولتتفرغ الدولة لعمليات البناء والتنمية والتي مازالت مستمرة حتى يومنا هذا .

من هذا السرد التاريخي لتتابع الحضارات في دلمون، نجد أن البحرين وعلى مر العصور وتتابع الحضارات كانت بلداً زراعياً، وأن مياهها الجوفية المتدفقة على هيئة عيون طبيعية كانت الركيزة الأساسية لقيام هذا النوع من النشاط الاقتصادي . أما مساحة الرقعة الزراعية فيها فهي في تباين من فترة لأخرى تبعاً لوفرة مياه الأمطار والاستقرار والرخاء الذي تمتعت به كل فترة . غير أن الثابت هو أن الأجزاء الشمالية والشرقية والغربية حيث تتركز معظم عيون البحرين الطبيعية كانت وعلى مر العصور مناطق قيام المدن واستقرار السكان . إذ تنتشر الينابيع البحرية على امتداد السواحل الشرقية والشمالية الشرقية لجزيرة سترة والمحرق وبدرجة أقل على السواحل

الشمالية لجزيرة البحرين عند سنابس وباربار ودراز . أما الينابيع البرية فتظهر بشكل متفرق في مناطق من جزيرة سترة، والأجزاء الشرقية من جزيرة البحرين، في مناطق النويدرات، وسند، وتوبلي، وفي الأجزاء الشمالية والشمالية الوسطى، والشمالية الشرقية من جزيرة البحرين في المقشع، وكرانة، وعالي، وفي مناطق المنامة الكبرى، وجزيرة النبيه صالح .

إن استمرار تدفق المياه من عيون البحرين لآلاف السنين يعكس حجم المخزون الجوفي لهذه المياه في منطقة وفترة اتسمت بالجفاف منذ حوالي ٦٠٠٠ سنة(٥٣) . مما يدل على أن هذه المياه هي مياه أحفورية غير متجددة، ملئت خلال الفترات المطيرة التي تعرضت لها مكاشف التكوينات الحاملة للمياه في البحرين والخزان العربي الشرقي الواقعة في صحراء الدهناء . إذ اتسمت هذه الفترات بأمطار منتظمة غزيرة استمرت لفترة طويلة تمكنت خلالها مياه الأمطار من ملء الخزانات الجوفية بكميات كبيرة من المياه لتتدفق شرقاً تبعا للميل العام للطبقات الحاملة لها نحو الساحل السعودي الشرقي والبحرين وتظهر على السطح مرة أخرى بهيئة عيون طبيعية وينابيع كأحد أشكال التصريف الطبيعي لهذا الخزان الإقليمي .

إن حضارة البحرين منذ العصور القديمة وحتى بداية القرن العشرين تدين بقيامها وتطورها إلى مياه العيون الطبيعية التي حباها بها الله والتي جعلت منها منطقة جذب لأعداد كبيرة من السكان استقروا حول مياهها المتدفقة وغطائها الأخضر، مما أكسب هذه المياه قدسية خاصة لدى سكان تلك الجزيرة وما جاورها، وما المعابد التي وجدت حول البعض منها كمعبد باربار ومعبد أم السجور ودراز وسار وغيرها إلا دليل على قدسية هذه المياه . ولعل انتشار مظاهر الجفاف حول الجزيرة زاد من أهمية وقدسية هذه العيون المعطاءة . ولا يختلف الحاضر عن الماضي فلازال لبعض العيون في البحرين وحتى الماضي القريب قدسية خاصة كعيون جزيرة النبيه صالح، كما استمرت بعض العيون الأخرى ملتقىً للناس وبخاصة في أفراحهم وتزاوجهم حيث كان العرسان يزفون على مشارفها تيمناً، ويغتسلون بمياهها تطهراً كعين أم شعوم وعين عذاري . في حين جذبت عيون أخرى سكان البحرين لجمالها وتدفقها وكثرة

مياهـــها والبيئـــة الزراعيـــة المتراميـــة المحيطة بها كعين قصاري وعين الرحى . كما وكانت العيون في البحريـن تعتـبر مصايف للسكان حتى الماضي القريب، حيث يذكر النبهاني الطائي[٥٤] في كتابه التحفة النبهانية "أنه في زمن الصيف ينزل غالب الأهالي والحكام قرب ماء العيون العذبة التي عند سواحل البحر بين النخيل والبساتين من أواسط الربيع حتى أوائل الخريف في بيوت مؤقتة من جريد النخيل" .

فلقد وصف النبهاني الطائي[٥٥] الذي زار البحرين أوائل هذا القرن (١٩١١م) عيون البحرين فذكر "أن جزيرة البحرين كثيرة المياه العذبة، ولكثرة ينابيعها البحرية وعيونها البرية كانت في غاية الخصوبة سوى أن فلاحتها غير متقنة ويوجد في وسط البحر جملة ينابيع عذبة تفور بقوة . فيغوص عليها المستقون فيملئون منها القرب للسفن ولشرب غالب أهل البلدة وأن من الواقعة على ساحل البحر لما يتدفق ماءها ويسيل على وجه الأرض . ومنها ما إذا جزر البحر ظهرت فاستقوا منها . وإذا مد البحر علاها بنحو ستة أذرع فيغوصون عليها للاستسقاء . والينابيع البحرية هي ألطف مياههم لصيانتها عن الأوساخ التي تقذفها الرياح في العيون غالباً . وأيضاً ليس بها دود ولا طيسي (ميكروب) وذلك عدم مكثه بسرعة وفورانه وتدفقه"[٥٦] . ويسترسل فيذكر "وعدد الينابيع البحرية المشهورة عندهم بأسماء مخصوصة نحو ٢٥ ينبوعاً غير الصغار والمجهولة الاسم، وعدد التي في البر نحو ٢٠٠ عين وذلك غير الصغار، وغالبها يسيح على وجه الأرض ثم يفيض في البحر . وأن عيون البحرين وينابيعها الموجودة اليوم تزيد على معدل (حالة أرضها الطبيعية) بكثير، وفي الحقيقة أن البحرين أكثر البقاع مياهاً مع أنها جزيرة" .

غير أن اكتشاف البترول أوائل هذا القرن وما واكبه من زيادة سكانية وتطور سريع في الجزيرة العربية والبحرين وما أدى إليه من تطور صناعي وزراعي بسبب ثروات النفط أدت إلى استنزاف المياه الجوفية في فترة لا تجاوز ٧٥ سنة . وإذا كانت الثروة البترولية قد استطاعت حتى يومنا هذا أن تمدنا بالمياه المحلاة من البحر، فهل بإمكان الأجيال القادمة العيش في هذه المنطقة بعد نضوب الماء والبترول، أو أن ننتظر حصول معجزة قادمة على هيئة عصور

مطيرة لشبه الجزيرة العربية ليتحقق حديث رسولنا ﷺ **"لا تقوم الساعة حتى يكثر المال ويفيض حتى يخرج الرجل بزكاة ماله فلا يجد أحداً يقبلها منه وحتى تعود أرض العرب مروجاً وأنهاراً"** (رواه مسلم) .

هند عبد العزيز القصيبي
د. أسماء علي أباحسين
د. وليد خليل الزباري



بعض من أختام الفترة الدلمونية (متحف البحرين الوطني)



إنكي إله المياه العذبة تحت الأرضية (متحف البحرين الوطني)

الوثيقة ـ ٦٧

المراجع

١ - القصيبي، هند عبد العزيز، ١٩٩٨م . تاريخ وواقع العيـون الطبيعية في دولـة البحرين . أطروحـة ماجستير، جامعة الخليج العربي، البحرين، ص ١٣ - ٣٦، ٤٢، ١٢٥ .

٢ - الأحمد، سامي سعيد، ١٩٨٥م . تاريخ الخليج العربي مـن أقدم الأزمنـة حتـى التحريـر العربـي . مركز دراسات الخليج العربي بجامعة البصرة، مطبعة جامعة البصرة، ص ٢١١ .

٣ - جواد علي، علي، ١٩٧٦م . المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام . جـ ١، الطبعة الثانيـة، دار العلم للملايين، بيروت، ص ٥٥٣ .

الخليفة، عبد الله بن خالد، وعبد الملك الحمر، ١٩٨٢م . البحريـن عبر التـاريخ، جـ ١، المطبعـة الحكومية وزارة الإعلام، دولة البحرين، ص ١٥، ١٦ .

الأحمد، م.س. ص٢٠٨ - ٢١٢ .

٤ - بيبي، جيوفـري، ١٩٨٥م . البحـث عـن دلـون . ترجمـة أحمـد عبيـدلي، دلـون للنشـر، نيقوسـيا، ص١٣٠ - ١٣٢

٥ - الأحمد، م.س. ص٢١١ .

٦ - رايس، مايكل، ١٩٨٧م . تلك الجزيرة على حافة العالم . الوثيقة، العدد العاشر، ص١٨٢ - ١٩٧ .

٧ - النجم، عبد الرحمن عبد الكريم، ١٩٧٣م . البحرين في صدر الإسلام وأثرها في حركة الخوارج، طبع دار الحرية، بغداد، ص١٧ .

٨ - آلخليفة والحمر، م.س. ص١٩ .

٩ - الأحمد، م.س. ص ٥٧ . وجواد علي . جـ١ . م . س . ص ٥٣٣ - ٥٣٤ .

١٠ - جواد علي، جـ١، م.س. ص ١٩٢ .

١١ - بيبي، م.س. ص ٤٧٦ .

١٢ - بيبي، م.س. ص٧٣، ٧٤، ٧٦ .

١٣ - شرف، عبد العزيز طريح، ١٩٨٥م . مناخ أواخر البليستوسين والتغيرات التي طرأت عليـه خـلال العهود التالية حتى أواسط القرن التاسع عشر . الكتاب الجغرافي السنوي، العدد الأول، الريـاض، ص٩١ .

١٤ - Larson, C.E., 1983 . Life and Land use on the Bahrain Islands, the Geoarcheology of an Ancient Society. Univ. of Chicago, pp.74 - 76 & p. 200 .

١٥ - Woodburn, M., 1995. Ancient Saar, Uncovering Bahrain`s Past, London - Bahrain Archaeologcal Expedition, North Star Publishing. U.K. London. P48

١٦ - بيبي، م.س. ص٢٢١ .

١٧ - جواد علي، جـ١، م.س. ص٥٦٦ و ٥٤٥ .

الخليفة والحمر، م.س. ص٧٧ .

١٨ - Larson، م. س. ص ٢٠١ .

١٩ - بيبي، م.س. ص ٢٢٥ .

٢٠ - جواد علي، جـ١، م.س.، ص٥٧١ .

٢١ - بيبي، م.س. ص٣٥١، ٣٥٢ .

٢٢ - الخليفة والحمر، م.س. ص٤٧ و ٤٨ .

جواد علي، جـ١ م.س. ص٥٤٥ و ٥٧١ .

٢٣ - شرف، م.س. ص٩١ .

٢٤ - Larson، م.س. ص١٩٢ - ١٩٥ و٢٠١ .

٢٥ - جواد علي، جـ١ م.س. ص٥٦٥ .

الأحمد، م.س. ص٢١٦ و٢١٧ و ٢٤٤ .

بيبي، م.س. ص٢٦٣ .

٢٦ - بيبي، م.س. ص٤٣٠ .

٢٧ - Larson، م.س. ص١٩٦ و ٢٠٣ .

٢٨ - بيبي، م.س. ص٤٣٠ و ٤٣٧ .

٢٩ - Larson، ص٢٠٣ .

٣٠ - جواد علي، جـ١ م.س. ص٥٢٩ .

الأحمد، م.س. ص٣٠٩ .

٣١ - Larson، م.س. ص٨٥ و ٢٠٤ .

٣٢ – جواد علي، جـ٢، م.س. ص٦٤٨ .

٣٣ – جواد علي، جـ٧، م.س. ص٢٦٧ .

٣٤ – النجم، م.س. ص٨٧ .

٣٥ – بيبي، م.س. ص٢٦٣ .

٣٦ – الخليفة والحمر، م.س. ص٥٢ .

٣٧ – جواد علي، جـ٢، م.س. ص٣٨ .

٣٨ – الخليفة والحمر، م.س. ص١٢١ .

بوتس، ا.ت.، ١٩٨٦م . برلين، أوال والمحرق (دراسة في سبب التسمية)، الوثيقة، العدد التاسع، مركز الوثائق التاريخية، دولة البحرين،ص١٥٧ .

٣٩ – جواد علي، جـ١، م.س. ص٢٤٠ – ٢٥٤ .

٤٠ – Larson، م.س. ص٢٠٦ .

٤١ – كانو، عبد اللطيف جاسم، ١٩٨٥م . البحرين في صدر الإسلام . الوثيقة، العدد السادس، مركز الوثائق التاريخية، دولة البحرين، ص١٩ و ٢٠ .

٤٢ – كيرفران، مونيك، وأبو خلدون، ١٩٨٣م . حفريات قلعة البحرين تضيف معلومات جديدة إلى التراث الحضاري، الوثيقة، العدد الثاني، مركز الوثائق التاريخية دولة البحرين، ص١٧٧ و١٧٨ .

٤٣ – كيرفران، مونيك، وآرليت نيجر، وميشيل بيرازولي، ١٩٨٢م . حفريات قلعة البحرين ١٩٧٧ – ١٩٧٩م . جـ١، مطبوعات وزارة الإعلام إدارة الآثار والمتاحف دولة البحرين، البحرين، ص١٨ .

٤٤ – بيبي، م.س. ص١١٧ .

الأحمد م.س. ص١٧٦ و١٩٥ .

٤٥ – الخليفة والحمر، م.س. ص٥٢ .

٤٦ – Larson، م.س. ص٢٠٦ .

٤٧ – الخليفة، عبد الله بن خالد، وعلي أباحسين، ١٩٩١م . البحرين عبر التاريخ، جـ٢، مركز الوثائق التاريخية، دولة البحرين، ص٩١ – ٩٣ .

٤٨ – ن.م.س. ص ١٤١ .

٤٩ – ن.م.س. ص١٥٧ .

٥٠ – بن عيسى، إبراهيم بن صالح، ١٩٦٦م . تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد، ووفيات بعض الأعيان وأنسابهم وبناء بعض البلدان من ٧٠٠ – ١٣٤٠هـ، منشورات دار اليمامة، الرياض، ص٦١ .

٥١ – لاندن، روبرت، ١٩٨٦م . إعادة النظر في كتابة تاريخ البحرين، الجزء الأول ١٧٨٣ – ١٨٦١م، الوثيقة، العدد الثامن، مركز البحرين للوثائق التاريخية، دولة البحرين، ص٨٠ .

٥٢ – ن.م.س. ص٨٦ – ٨٩ .

٥٣ – McClure,1976; McClure, H.A. 1976. Radiocarbon Chronology of Last Quaternary Lakes in the Arabia. Nature. Desert : 755. P. 756 - 263 .

الوليعي، عبد الله ناصر، ١٩٨٨م . تغيرات المناخ في المناطق الجافة، "دراسة حالة" في المملكة العربية السعودية، الكتاب الجغرافي السنوي، العدد الرابع، الرياض، ص٤٦ – ٥٤ .

عبده، طلعت أحمد محمد، ١٩٨٨م . الجغرافيا التاريخية لشبه الجزيرة العربية في عصور ما قبل التاريخ، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ص١٢٦ – ١٣٦ .

٥٤ – الطائي، ١٩٨٦م . ص٢٢ .

٥٥ – ن.م.س. ص٢١ .

٥٦ – ن.م.س. ص٢٢ .